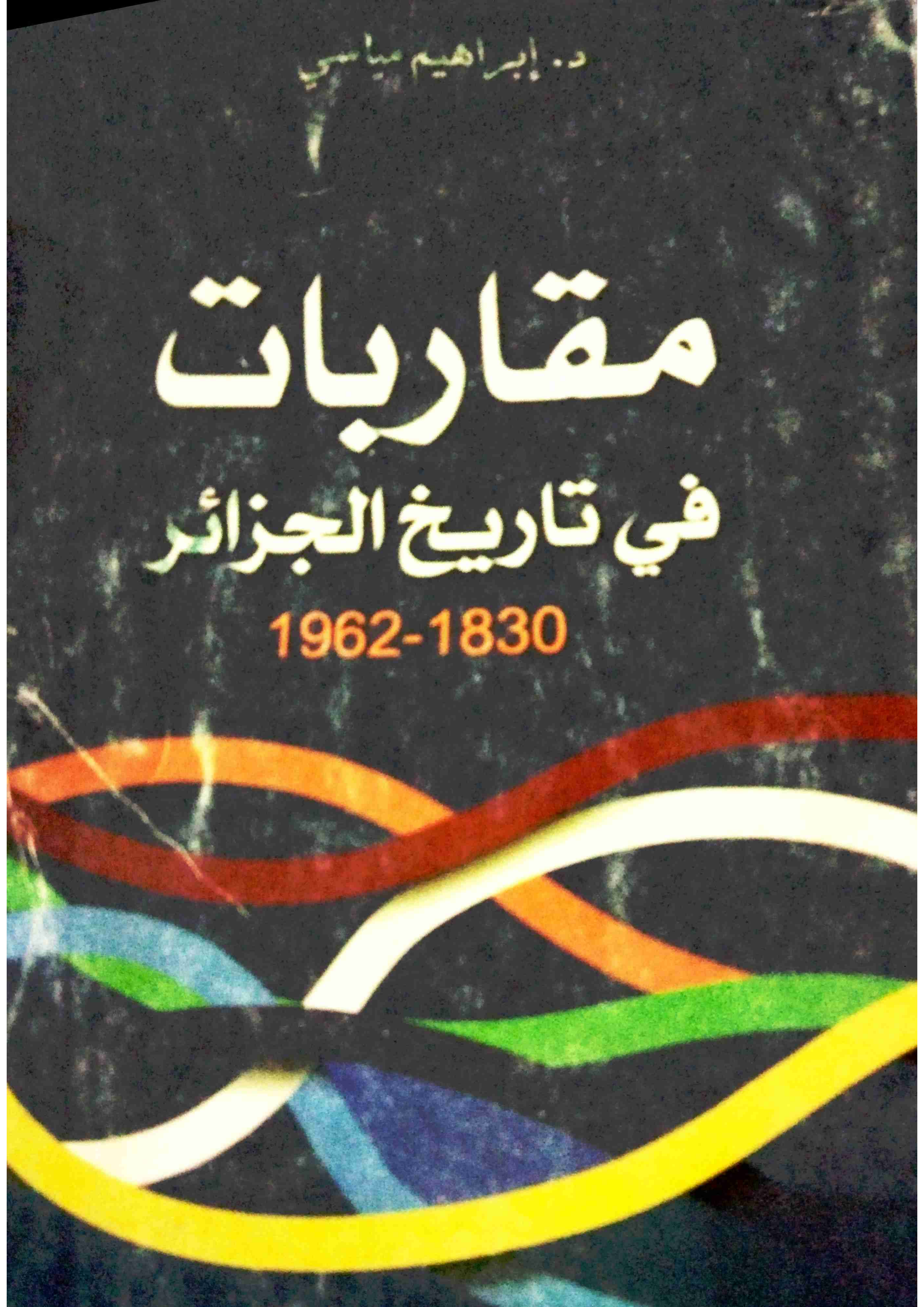

د. إبراهيم مياسي
مقاربات
في تاريخ الجزائر
1830-1962

إرهاصات الحركة الوطنية الجزائرية (*)
(1900 - 1914)

تقديم

تعتبر الجزائر من الثغور الجهادية الحصينة، والربط المتينة لجميع الربوع الإسلامية، حيث قاومت التحرشات الصليبية النصرانية الحاقدة، وما سقوط الجزائر في قبضة الإحتلال الفرنسي سنة 1830م إلا بداية لإنهيار الجدار الإسلامي في مغارب الأرض ومشارقها، بحيث بدأ الإستعمار الأوروبي الحديث يتوغل في الأقاليم الإسلامية ويتحكم في مصيرها إلى اليوم.

هذا وقد تميزت المصادمات الأولى مع الإحتلال الفرنسي للجزائر، بجهاد شعبي عسكري مسلح وبمقاومة سياسية دينية فكرية، وقد تولى الجهاد زعماء معروفون (الأمير عبد القادر – الشيخ بوزيان – الشريف بوبغلة – لالة فاطمة نسومر – المقراني والحداد – أولاد سيدي الشيخ – الشيخ بوعمامة وغيرهم) وزعماء غير معروفين يعملون في الخفاء، جاهدوا وهم مجهولون وقد كانوا ينبهون الناس ويؤلفون اللجان، ويكتبون العرائض في الصحف ويراسلون بعضهم العض من أجل تنظيم الجهاد وتخطيطه، لأن الإحتلال الفرنسي في الجزائر قد محا جميع معالم الدولة الجزائرية وحكم البلاد حكما مباشرا، حيث لا يوجد من يتكلم باسم الشعب ولا توجد واسطة بينه والسلطات الفرنسية، لذلك اندفع الشعب الجزائري في حركة وطنية مثلت الصراع العسكري مع العدو المتعدد الرؤوس والاتجاهات، واستمرت هذه الحركة الوطنية أكثر من سبعين سنة كاملة (1830 – 1900 م)، فكانت حركة جهادية عنيفة،

لهذا لم يعرف الشعب الجزائري طيلة هذه الحقبة أي نوع من الخمول أو الجمود بل كان في حركة ونشاط وحيوية دائبة، غير أنه قدم قوافل عديدة من الشهداء قدرت بأكثر من مليونين ونصف شهيد (منهم مليون فقط باعتراف الوثائق الفرنسية ما بين1867 – 1869م).

ولهذا كله أراد الشعب الجزائري أن يغير جهاده فأوقف دور البندقية ليحل محلها القلم وأسلوب البعث الحضاري والوعي الفكري ضمن النضال السياسي في الحركة الوطنية.

ولم تكن الحركة الوطنية دائما كلها سياسية وسلمية وعاطفية، بل كان هناك في نفس الوقت الشكل العسكري للحركة الذي لم يكن أقل إثارة في ملامحه عن غيره من الأشكال ذلك أنه رغم عمليات المسخ والفسخ التي تعرض لها الشعب الجزائري فإن كيان الأمة بقي قائما صامدا يواجه سياسة الإستعمار الفرنسي المدمرة فعرفت الجزائر في مستهل القرن العشرين نهضة (Renaissance) لبعث (أو إعادة ميلاد) التراث الفكري الحضاري للأمة الجزائرية، حتى تعي ما يدور حولها، فتستيقظ وتنهض، لتغير واقعها المر، وإثبات الحقيقة التاريخية.

أسباب النهضة

كان لهذه النهضة أسباب عديدة و متداخلة نورد أهم نقاطها بإيجاز:

1) – صحوة المشرق العربي ودعوة السيد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده للنهضة الإسلامية، ولهذه النهضة أثار وأتباع في الجزائر لأنها منبثقة عن دعوة ونداء حركة الجامعة الإسلامية الذي يريد تأسيسها الخليفة عبد الحميد الثاني (1842 – 1918م) في

اسطنبول، باعتباره حامي حمى الإسلام، خاصة بعد اشتداد تكالب الإستعمار والصهيونية على العالم الإسلامي والعربي.

إذن كانت هناك علاقات متواصلة مع المشرق العربي والإسلامي سواء مع حركاته أو زعمائه أو مع مذاهبه و أفكاره.

2) – دخول بعض الصحف و المجلات المشرقية الإصلاحية إلى الجزائر، رغم الرقابة الشديدة التي تمارسها السلطة الإستعمارية عليها، منها – المنار – التي كانت لسان حال الحركة العبدوية (نسبة لمحمد عبده)، وكان لها صدى و اسعا في الجزائر، لأنها كانت بمثابة مدرسة إصلاحية متنقلة، تنشر الفكر المستنير والوعي الثاقب، وتكشف نوايا الأعداء، كذلك تصل إلى الجزائر مجلة – العروة الوثقى – التي يقدم أفكارها جمال الدين الأفغاني ويحررها محمد عبده في باريس، وكان دورها توعية المسلمين والتشبث بالعروة الوثقى، لا انفصام لها، والمتمثلة في الكتاب والسنة، وقد صدر منها حوالي ثمانية عشر عددا ثم أوقفتها المصالح العسكرية، نظرا لخطها الثوري العصري الإسلامي، وكان العدد الواحد منها ينتقل من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى، ليقرأها الجميع بلهفة وشغف.

3) – زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر سنة 1903 م، وما تلى ذلك من أحاديث ولقاءات ودروس ومحاضرات ونحو ذلك، والتي تمثل عاملا حاسما في انتعاش الحركة الفكرية الإسلامية في الجزائر، وقد خلفت هذه الزيارة آثارا طيبة في نفوس الناس وخاصة عند علماء الجزائر منهم الشيخ عبد الحليم بن سماية الذي واصل نهج محمد عبده في الإصلاح بعده.

4) – نشأة ونمو النخبة الجزائرية المتمثلة في – **كتلة المحافظين** – **وجماعة النخبة** – حيث تتكون **كتلة المحافظين** من العلماء وأهل

الدين من الصوفية والمرابطين، وكذلك من المحاربين القدماء وكان بعض هؤلاء مصلحين يؤمنون بالجامعة الإسلامية وينادون بنشر التعليم والتقدم والتسامح وكانوا جميعا متحمسين للوطنية والجامعة الإسلامية، كما كانوا أعداء غير مساومين لفكرة التجنس، وللخدمة العسكرية الإجبارية تحت العلم الفرنسي، والتجديد على الطريقة الغربية، ثم أنهم قد طوروا برنامجهم ليشمل النقاط الهامة التالية:

1 – المساواة في التمثيل النيابي بين الجزائريين والكولون.

2 – المساواة في الضرائب والفوائد في الميزانية.

3 – الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

4 – معارضة التجنيس والتجنيد العسكري الإجباري.

5 – إلغاء قانون الأهالي وكل الإجراءات الأخرى التعسفية.

6 – إسترجاع العمل بنظام القضاء الإسلامي.

7 – احترام التقاليد والعادات الجزائرية.

8 – نشر وإصلاح وسائل تعليم العربية.

9 – عدم العنف.

10 – حرية الهجرة، ولاسيما نحو الشرق الأدنى[1].

ويعتقد هؤلاء الأعضاء بأنّ الجزائر لا تستطيع أن تهزم فرنسا وحدها، لذلك فإن المحافظة على الشخصية الجزائرية ومقاومة كل خطط الإستعمار الفرنسي في فسخ ومسخ الجزائر والتضامن مع جميع المسلمين، هي الكفيلة بضمانات الإنتصار.

أما جماعة النخبة الجزائرية التي ولدت في ظل الإحتلال الفرنسي، وتخرجت من المدارس الفرنسية، فقد كان لها أيضا

...نامجا خاصا، ولهم نظرياتهم في السياسة الجزائرية ـ تنافس بها ...طة المحافظين ـ؛ ففي سنة 1911 م أراد أحد أعضاء جماعة النخبة ان ...رف جماعته فقال: " إنّها ثريات الشبان المتخرجين من الجامعات ...فرنسية، والذين كانوا قادرين بأعمالهم أن يصعدوا فوق الجماهير وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقيين"، وهم ...بقة مثقفة يحسنون العربية والفرنسية، واطلعوا على كل من ...لحضارة العربية الإسلامية، والحضارة الفرنسية الغربية، وهم على العموم أقلية من الموظفين والمحامين والصحافيين والمعلمين وغيرهم، وقد تبنوا أفكار الغرب، ووسائل عيشه وأرادوا أن يحولوا المجتمع الجزائري إلى مجتمع أوروبي فأصبحت عندهم عقدة الاستعلاء على المجتمع الجزائري، ولكن كانوا و ما زالوا يشعرون بعقدة النقص تجاه المجتمع الفرنسي، ولذلك ضاعوا بين المجتمعين، كما أضاعوا لغتهم و عاداتهم، واحترام وصداقة مجتمعهم، ثم أداروا وجوههم نحو الحياه الأوروبية، لذلك تزوجوا في كثير من الأحيان بفرنسيات وتكلموا اللغة الفرنسية، وعاشوا مع المجتمع الفرنسي، وأرسلوا أطفالهم إلى المدارس الفرنسية، محاولين أن يخرجوهم على الطريقة الفرنسية [2].

وكانت مطالب جماعة النخبة الإصلاحية متواضعة جداً، ففي المذكرة التي قدموها إلى الحكومة الفرنسية سنة 1912 تعكس برنامجهم المتمثل في مطالبة بعض التحويرات في قانون التجنيد الإجباري، وطالبوا بإلغاء الإجراءات الإضطهادية وتمثيل نيابي كامل للجزائريين في جميع المجالس، وتوزيع عادل للضرائب، والمساواة في جميع فوائد وخيرات الجزائر..إلخ.

5) – تطور العالم الإسلامي نفسه تطورات سياسية و لاسيما الأجزاء التي تؤثر مباشرة في الجزائر، مثل احتلال فرنسا لتونس

وانكلترا لمصر، وقيام حركات وطنية فيهما، والإنقلاب العثماني وخلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1909م بعدما جلس على العرش سنة 1876م لأنه عارض أفكار النصارى و اليهود في تسيير دولته ضمن الخلافة الإسلامية، لهذا نعته خصومه بنعوت عديدة منها المستبد، كما عرف باستبداده في مقاومة الدستور، ولعل كتاب المفكر عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الإستعباد، قد انساق مع هذه الأفكار في معالجته للإستبداد متأثرا بالمفكرين الغربيين." و لشعوره بخطورة المسألة التي يعالجها و النتيجة الأخطر التي توصل إليها على حياته وعجزه في الدفاع عن نفسه ضد طغيان الإستبداد وجبروته، وكذلك للعناد الذي قاساه والعمر الذي صرفه في البحث للتوصل إلى تشخيص داء الشرق ودوائه، يصرح بأنه لا يقصد ظالما بعينه ولا حكومة أو أمة مخصوصة وإنما أراد بيان طبائع الإستبداد وما يفعل ومصارع الإستعباد وما يقضيه والتنبيه لأصل الداء الدفين حتى يعرف الذين قضوا أنهم هم السبب فلا يلومون الأغيار الأجانب"[3]، ولذلك دفع الكواكبي الثمن غاليا عن هذه الأفكار، حيث توفي مسموما سنة 1902م وصودرت جميع أوراقه في مصر بإيعاز من السلطنة العثماتنية، وقد كان لكل هذه الأحداث وقع وصدى واسعين في الجزائر حركت المجتمع بتساؤلاته العديدة، كما كان للإعتداء الإيطالي على ليبيا وفرض الحماية الفرنسية على المغرب الشقيق، بالغ الأثر في نفوس الناس لنجدتهما.

6) – من الأسباب الهامة للنهضة أيضا ظهور شخصية بارزة هو" شارل جونار" الوالي العام للجزائر والخبير بالشؤون الجزائرية فقد طالب بمعاملة الجزائر كمستعمرة خاصة، منذ أن جاء إلى الجزائر ضمن الوفد البرلماني بقيادة " جول فيري " سنة 1891 م لتقصي الحقائق والنظر في أحوال الجزائريين، والتفكير في

مصيرهم ضمن جشع المستوطنين، ودراسة إمكانية استقلال الجزائر عن فرنسا سياسيا أو حتى اقتصاديا.

كما قدم النائب "شارل جونار" تقريرا سنة 1892م، أشار فيه إلى إعادة النظر في النظام القائم في الجزائر، وطلب بإعطاء بعض الحقوق للمواطنين الجزائريين، كما اقترح تكوين مكتب لمصالح الجزائر بباريس "لإعطاء سياسة الجزائر دفعة مطابقة لوجهة نظر وشروط السياسة الوطنية".[4]

حكم "شارل جونار" الجزائر ثلاث مرات الأولى من 3 أكتوبر 1900 إلى جوان 1901 ثم قدم استقالته للمعارضة التي وجدها في تطبيق سياسته، أما المرة الثانية فكانت أطول، من ماي 1903م إلى 28 فيفري 1911 وهو تاريخ استقالته، وغادر الجزائر يوم 30 مارس 1911م وحكم الجزائر للمرة الثالثة بعد الحرب العالمية الأولى لفترة قصيرة.

وقد حث في فترة حكمه السلطات العليا الفرنسية على معاملة الجزائر معاملة حسنة لكونها مستعمرة من نوع خاص، حيث يجب الحفاظ على التقاليد الوطنية ونشر التعليم باللغة العربية، واحترام الشريعة الإسلامية والتخفيف من الضرائب والقوانين الجائرة وتعيين الكثير من العلماء والفقهاء والقضاة والأئمة في مناصب عليا تليق بمقامهم، وإنشاء المؤسسات الدينية والتعليمية والمطابع لنشر التراث وتشييد المباني الضخمة وفق الطراز العربي الإسلامي مثل مبنى البريد المركزي بالعاصمة، بقبابها و نقوشها الرائعة التي صممها الفنان عمارة قاقة الذي استقدمه الوالي العام من قمار بوادي سوف، حيث تشتهر هذه العائلة إلى اليوم بهذا الفن و المجسم إلى حد الآن في قباب مطار قمار بالوادي وقباب اقامة الوالي وغيرها

وكذلك مقر ولاية الجزائر العاصمة بعمارتها المغربية الأندلسية الإسلامية الجميلة ومبنى قصر الشعب وغيرها.

كما أنشأ جامعة الجزائر (المركزية) سنة 1909م بموجب قانون 30 ديسمبر، وقد جمع فيها المدارس العليا للعلوم والآداب والقانون والطب.

إذن كل هذه الأمور ترمي إلى الحفاظ على الجزائر عربية - إسلامية مرتبطة بفرنسا، كما اتبع سياسة تعسفية و طاغية، لأن الجزائر قد عرفت في مطلع القرن العشرين إجراءات قمعية تتمثل في انشاء نظام جديد خاص بالجزائريين، يعرف بالمحاكم الرادعة اثر انتفاضة سكان عين الترك (Marguerite)، أو عريوة وكذلك سكان مليانة في أفريل 1901م، واتبعها بتجديد قانون الأهالي، كما تولدت عن أحداث عين بسام سنة 1906 م إجراءات اضطهادية جديدة تعرف "بمنشورات شارل جونار".

ونلاحظ هنا التناقض الصارخ في سياسة شارل جونار على جميع الأصعدة، غير أنه عرفت الجزائر في ظل سياسته أجواء جديدة سمحت للنهضة الجزائرية أن تبرز بمظاهر عدّة.

مظاهر النهضة

عرفت الجزائر في مستهل القرن العشرين عدة مظاهر للنهضة تمثلت فيما يلي :

أولا : ظهور زعماء مصلحين إما متأثرين بدعوة الإصلاح بالمشرق العربي وإما متأثرين بفكرة الحداثة والعصرنة من خلال الحضارة الأوروبية والتي يعايشونها في الثقافة الفرنسية وهم كوكبة من العلماء والأساتذة نورد بعضهم، وعلى رأسهم الشيخ عبد

القادر المجاوي، أحد قادة الإصلاح في كتلة المحافظين، وكان يتمتع بشعبية واحترام كبيرين بين الجزائريين. ولد المجاوي في تلمسان سنة 1848 م وتوفي بقسنطينة سنة 1914م، فقد كان أستاذا للعربية والشريعة الإسلامية في المدرسة الجزائرية - الفرنسية بالعاصمة وقسنطينة مدة سنوات، حيث كان في خدمة التعليم منذ أربعين سنة وقد ساهم المجاوي بفعالية في النهضة الجزائرية بكتبه ومحاضراته ونشاطه في الصحافة.

وكانت رسالة عبد القادر المجاوي كثيرة الفائدة في وقته دعا فيها إلى الإصلاح الإجتماعي بنقده للتقليد، كما دعا مواطنيه المسلمين عامة إلى نبذ الركود وإلى اليقظة والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة، وقد كان كتابه "إرشاد المتعلمين" طبع في القاهرة، المطبعة الوهيبية1877م / 1294هـ، في 30 صفحة، موضع تعليق وتحبيذ حتى من الدوائر الرسمية في الجزائر فقد نشرت جريدة "المبشر" بالعربية تعليقا حول هذا الكتاب تحت عنوان "كتاب مفيد" يوم 8 ديسمبر 1877م وقد قرظه بعض علماء مصر والشام منهم وهبي أفندي المصري، معلم اللغة الفرنسية في مدرسة السقائين المصرية، كما له عدة كتب أخرى، وكان كثير الإطلاع مثقفا باللغتين وتصدر للتدريس وتخرج على يديه جيل من المثقفين، حتى سماه بعضهم "بأبي النهضة" وسماه آخرون "شيخ الجماعة" [5]، فقد كان بالإضافة إلى ذلك كثير النشاط في النوادي والجمعيات المعاصرة والتي نشطت في أوائل القرن العشرين ولاسيما في العاصمة، وكانت جريدة "كوكب إفريقيا" للشيخ محمود كحول تنقل محاضراته وكتاباته إلى قرائها، وكذلك جريدة "المغرب"، فانتشرت دعوته التي تبناها في قسنطينة بالذات تلميذه المولود بن الموهوب ثم الشيخ عبد الحميد بن باديس.

وهناك شخصية أخرى هامة في كتلة المحافظين، وهو عبد الحليم بن سماية، الذي ولد سنة 1866 م بالجزائر العاصمة وترعرع في أحضان والده علي بن سماية المتخرج من الأزهر الشريف ولذلك فهو واسع الثقافة، فاعتنى بتعليم ابنه عبد الحليم بعد أن حفظ القرآن الكريم وفي سنة 1896م بدأ التدريس بصحبة الشيخ عبد القادر المجاوي في مدرسة خاصة بتعليم اللغة العربية، وكان ابن سماية أحد الدعاة البارزين للجامعة الإسلامية في الجزائر، فعندما زار المصلح الشيخ محمد عبده الجزائر، في سبتمبر 1903م، كان يقيم في بيت ابن سماية حيث تولى ضيافته واعتنق منهجه ومذهبه الإصلاحي، وكان يلقب أنه "عبدوي".

عارض بشدة التجنيد العسكري الإجباري في الجيش الفرنسي طيلة سنة 1911م و قبل صدور القانون في فيفري 1912م، ففي اجتماع عمومي في العاصمة لمعارضة التجنيد، أوضح ابن سماية بأن الجزائريين يجب أن يرفضوا الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي حتى ولو رضيت فرنسا بتعويضهم بالحقوق السياسية، وهو ما كان يسعى إليه جماعة النخبة، لأن ذلك يخالف الشريعة الإسلامية لأن القتال يجب أن يكون في سبيل الله والوطن أو الشرف، لا في سبيل العلم الفرنسي، وأيّد وجهة نظره بآيات من القرآن الكريم، لكن بعض أفراد جماعة النخبة اتهموه بسوء الفهم، وبعد مشادة كلامية، انتهى الإجتماع بالرفض التام للتجنيد الإجباري، سواء مع الحقوق السياسية أو بدونها.

إشتهر عبد الحليم كأستاذ ومصلح بالمدرسة الثعالبية، وتخرج على يده جيل من المثقفين المزدوجي الثقافة، ويعد من أوسع علماء عصره علماً وثقافة، من مؤلفاته "فلسفة الإسلام" ونشر مقالات في

الأخلاق والمجتمع، في جريدة المغرب وكوكب إفريقيا وجريدة الإقدام، توفي (رحمه الله) في 4 جانفي 1933م بالعاصمة.

فاز المحافظون في المعركة ضد التجنيد الإجباري مؤقتا، تحت قيادة عبد الحليم بن سماية رغم أن زعامة المحافظين في ذلك الوقت كانت في يد الشيخ المولود بن الموهوب، والذي ولد سنة 1866م بمدينة قسنطينة، كان من أبرز أعماله تأسيس نادي صالح باي حيث كان يلقي محاضراته، وكان في الوقت نفسه يلقي دروس الوعظ في الجامع الأخضر، وفي سنة 1895م عينته الإدارة الفرنسية أستاذا للدراسات الإسلامية بمدرسة سيدي الكتاني بقسنطينة وفي سنة 1908م عين مفتيا للمذهب المالكي بها، وهو منصب مرموق لا يتقلده إلا من كان ذا سلطة عليا في شؤون الدين والقضايا الشرعية والإجتماعية، وكان في نفس الوقت أستاذ الفلسفة والعلوم الدينية، والأدب العربي في المدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بقسنطينة، وقد كانت محاضراته في نادي صالح باي تجلب إليها مستمعين كثيرين، كما ساعد إعجابه بالتقدم والعلوم الحديثة، والأفكار الأوروبية على تنوير كثير من الجزائريين، وكان شعار ابن الموهوب أن الجزائر قد وصلت إلى أسفل نقطة في سلم التدهور ولكي تتخلص من هذه الحالة يجب أن تؤمن بالتقدم، والتعليم والتسامح والعودة إلى منابع الإسلام الصافية، ولهذا السبب أعلن ابن الموهوب الحرب ضد الجهل والإجحاف، والكسل لكي يحرر الجزائر من حالتها المنحطة، وقد لخص برنامج إصلاحه بندائه الحار في قصيدة مطولة من إثنتين وسبعين بيتا سماها "المنصفة" ينتقد فيها بعض أوضاع المجتمع القسنطيني خاصة والجزائري عامة وقد نشر حولها الدكتور عبد الله حمادي دراسة هامة جديرة بالمطالعة،[6] وفي خطبته عند توليته الإفتاء يقول ما يلي: "يا إخوتي: لا تقتلوا أنفسكم بالقنوط و الكسل،

فإن الحياة الطيبة علم وعمل، ولينظر كل واحد منكم لغيره نظر الأخ المحب لأخيه، فمن لم يحيره ما حل بالمسلمين، فهو بعيد من الإنسانية والدين، أقول هذا و لا أخاف لومة لائم، وما أنا إلا جزء منكم، يسرني أن أرى نفسي معدودة من المدافعين لكل شرّ عنكم، فضعوا اليد في اليد متعاهدين متحالفين على محاربة الجهل والبدع اللذين كانا سببا في تأخر الحال بالمسلمين. أيها العلما (كذا)، أيها المدرسون، أيها الأئمة، أيها الخطبا (كذا)، ازرعوا نافع نصحكم في عقول عامتكم، وإلا فإنكم تموتون بموتهم كما يموتون بموتكم." [7]

ودعا ابن الموهوب مستمعيه الجزائريين إلى التعاطف والتفاهم، والعمل من أجل الإسلام الحقيقي. لذلك فإن مساهمته كمصلح في الحركة الوطنية الجزائرية والجامعة الإسلامية كانت على أهمية كبيرة، غير أن ابن الموهوب كان يعتقد في فرنسا أنها ستستمر في الجزائر وستضاعف عملها الحضاري عن طريق تعليم تقدمي باللغتين العربية و الفرنسية، وأن عليها تحقيق مبدأ المساواة التامة بين الجزائريين والكولون ولا يمكن لفرنسا أن تتجاهل أحوال الجزائريين عندئذ لأن العالم الإسلامي عموما والجزائر خصوصا كانا قد بدأ في اليقظة وكانا متفتحين على الأفكار الجديدة. [8]

إن دور الشيخ ابن الموهوب في النهضة الجزائرية من خلال نشاطه وتدريسه ونشر مقالاته الاجتماعية و الثقافية في الجرائد والمجلات في ذلك الوقت، قد أولدت الحركة الإصلاحية خلال العشرينيات والثلاثينات بقيادة الرئيس الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس وزملائه العلماء كالبشير الإبراهيمي والطيب العقبي والأمين العمودي ومحمد العيد آل خليفة والعربي التبسي ومبارك الميلي وغيرهم والذين اختلفوا عن أستاذهم أنهم لم يتوظفوا عند الإدارة

الفرنسية، فكانوا أكثر حرية في طرح القضية الوطنية ومحاربة الإستعمار الفرنسي في الجزائر مباشرة.

توفي الشيخ ابن الموهوب في سنة 1939م و دفن بمسقط رأسه (رحمه الله) بعدما ترك لنا تراثا فكريا وأدبيا وتاريخا رائعا.

اما رائد جماعة النخبة فهو بلقاسم ولد حميدة ابن التهامي الذي ولد حوالي 1880م بمدينة مستغانم، و ترعرع بها إلى أن نال شهادة البكالوريا في الفلسفة والآداب، سنة 1898م، ثم درس بمدرسة الطب في الجزائر العاصمة وأحرز على شهادة الدكتوراه في الطب من "مونبلييه" بفرنسا سنة 1905م بعدها دخل الدكتور ابن التهامي معترك الحياة السياسية مباشرة، وعرف بميوله واتجاهه الفرنسي، لهذا تزعم جماعة النخبة، كما تراس عدة جمعيات معروفة باتجاهاتها الغربية الاستعمارية الفرنسية، أصدر جريدة "التقدم" في سنة 1923م واستمرت حتى سنة 1931م، كما نشر بعض الأعمال الطبية بمساعدة الأطباء الآخرين، توفي سنة 1940م.

ثانيا : إنشاء النوادي والجمعيات الوطنية الجزائرية ذات الأهداف الإجتماعية ـ الثقافية ـ السياسية، وكانت هذه المراكز تؤدي وظيفة المدرسة والتربية والتوجيه، وكانت عبارة عن خلوة للأحاديث السرية والخطيرة والسياسية، وملتقى إجتماعي ورياضي ومركز للتدريب على ممارسة الإسعافات الأولية، وكذلك نادي للكشافة...إلخ إذن فهي مقرات للنشاط الثقافي الذي يتدحرج تدريجيا إلى حركة سياسية.

ومن اهم الجمعيات والنوادي، الجمعية التوفيقية، والتي تهدف من خلال برنامجها إلى التوفيق بين الجزائريين والفرنسيين.

تأسست الجمعية التوفيقية سنة 1908م، ثم أعادت النخبة تنظيمها سنة 1911م، وكان رئيسها الدكتور ابن تامي ثم الدكتور ابن التهامي ونائبه محمد صوالح.

وقد نظمت الجمعية التوفيقية سلسلة من المحاضرات العلمية سنة 1911م حول القانون الإسلامي العام أو ملامح العالم الإنساني المعاصر أو عقوبة الموت و غيرها.

وساهمت الجمعية الرشيدية في النهضة الجزائرية بعد أن أسسها شبان جزائريون من خريجي المدارس الفرنسية ـ الجزائرية سنة 1894م، وبتأييد بعض الفرنسيين المتعاطفين مع الجزائر، وكانت الجمعية تصدر "نشرة" بالعربية وبالفرنسية، وتعقد سلسلة من المحاضرات الهامة، وتساعد على نشر التعليم والأخوة، وقد كان من بين أعضائها الدكتور ابن التهامي ومن بين أهم المحاضرات التي نظمتها سنة 1907م ما يلي :

- ابن بريهمات، تاريخ الطب العربي، بالعربية.
- ابن التهامي، مرض السل، بالفرنسية.
- عبد الحليم ابن سماية، تاريخ الأدب العربي، بالعربية.
- إبن زكري، الإسلام واللغات الأجنبية، بالعربية.
- عبد القادر المجاوي، الحضارة العربية قبل وبعد الإسلام، بالعربية.
- ابن رحال، التوفيق بين الإسلام و التقدم، بالفرنسية.

فضلا عن نادي صالح باي ونادي الإتحاد، وودادية العلوم وجمعية الهلال و غيرهم قد ساهموا جميعا في يقظة الجزائر في ذلك العهد، بالتركيز على التعليم والتقدم والتحرر وقد حاولوا أن يطوروا

المجتمع الجزائري وأن يجعلوا منه مجتمعا حديثا ومتنورا بدل مجتمع قديم ولكن زعماء هذه المؤسسات لم يكونوا لا ثوريين ولا متطرفين بل أنهم لم يحاولوا حتى استعمال هذه المؤسسات لنشاط معاد لفرنسا.

ثالثا : إحياء وبعث التراث الفكري الحضاري للشعب الجزائري عن طريق نشر كتب التراث الجزائري القديم، وكانت هناك كثير من الكتب للمؤلفين العرب عن التاريخ والجغرافيا والرحلات وسير المؤلفين والعظماء. ..إلخ.

وقد ساهم الشيخ العلامة محمد بن أبي شنب في نشر بعض المخطوطات وترجمة بعضها إلى الفرنسية، فقدم على التوالي :

– الرحلة إلى الحجاز، وهو مخطوط الشيخ حسين الورتلاني عنوانه "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" المعروف بالرحلة الورتلانية، طبع في الجزائر بمطبعة المستشرق "بيار فونتانا" (P. Fontana)، 1908، 230ص.

– أربع معاجم لسير العلماء والأولياء وهي:

1 – كتاب ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر، مطبعة مراد التركي، 1908، 380 ص.

2 – أبو العباس أحمد بن أحمد الغُبريني، عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الجزائر، مراد تركي، 1910، ص 254.

3 – " طبقات علماء إفريقيا " لأبي العرب، و" طبقات علماء إفريفية " لأبي عبد الله بن الحارث الخنشي، و"طبقات علماء تونس" لأبي العرب محمد التميمي، وهو جزآن وكلاهما مشبع

بالفهارس والنتائج المفيدة، طبع بباريس سنة 1915 - 1920[9].

وقد نشرها محمد بن أبي شنب قبل ذلك في " الجريدة الأسيوية " (Journal asiatique) 1906، مع الترجمة بالفرنسية

وهو يخص "الآداب والحقوق والمجتمع الإسلامي في المغرب زمن الأغالبة خلال القرن التاسع الميلادي.

4 – الجزء الأول من "تكملة الصلة" لابن الآبار، بالتعاون مع "ألفريد بيل"، الجزائر، فونتانا، 1920.

ونشر ابن أبي شنب أيضا "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية" لمؤلف مجهول، طبع بالجزائر سنة 1920.

أما في موضوع الشعر الملحون، فنشير إلى النص العربي والترجمة الفرنسية لشعر الشيخ محمد بن إسماعيل من سكان مدينة الجزائر، المتوفي حوالي 1870م، تحت عنوان حرب القرم[10].

ودخل ابن أبي شنب محفل العلماء المهتمين بالدراسات العربية في عام 1905م عندما شارك مشاركة فعالة في اجتماعات مؤتمر المستشرقين الرابع عشر الذي عقد في الجزائر، وقدم خلاله بحثا [11] علميا يشغل 400 صفحة في سجل محاضرات المؤتمر، وقد ترجم فيه بإيجاز لـ 360 عالما مغربيا ذكرهم الشيخ عبد القادر الفاسي في إجازته من دون أن يسهو عن ذكر مراجع بيبليوغرافية عن كل منهم سواء كان عالما بالحديث أو مفسرا للقرآن أو نحويا أو أديبا أو عالما من علماء التوحيد، أو فقيها من الفقهاء، أو صوفيا.[12]

كما أمر الوالي العام للجزائر "شارل جونار" بنشر أعمال جزائرية وإسلامية قديمة وقررها على المدارس التابعة للإدارة الفرنسية، فقام الجنرال "فور بيقي" بترجمة عقيقة المنداسي والحلل

الفرنسية لـ: أبو رأس الناصري، و"فانيان" بترجمة مختصر الشيخ خليل و"مويتلانسكي" بترجمة أرجوزة متن منازل القمر لمحمد المقري، و "سيكار" بترجمة منظومة الشيخ حسن العطار، كما قام الضابط المستشرق "لويس رين" (L.RINN)، والترجمان العسكري الجزائري أحمد بن حسن بن بريهمات بوضع كتاب تحت عنوان "اللسان يكمل الإنسان" وهو يدعو إلى تعليم اللغة الفرنسية بالعربية.

وأخيرا نذكر الدور الكبير الذي لعبته المطبعة الثعالبية في نشر المصاحف بالخط المغربي وكتب التراث الديني منها كتاب "الجواهر الحسان لتفسير القرآن" للشيخ عبد الرحمان الثعالبي.

رابعا : ظهور صاحبة الجلالة، وهي الصحافة التي يقول عنها عمر راسم : "... الصحافة هي ترجمان الأمم، وهي أعظم واسطة يبلغ نفعها مصادر الخدمة العمومية، ووظيفتها أكبر الوظائف في الإسلام، لأنها أحكم الوسائل و أقوم السبل لتربية الشعوب وترقية الأمم... وهي الباعثة في عقول الأحرار روح الفضيلة و اليقظة، فهي الآلة المؤثرة في النفوس بالترغيب والترهيب، والأمر والنهي والحض والزجر..." [13] ذلك أن الجزائر قد عرفت الصحف العربية منذ فترة مبكرة، حيث أول صحيفة صدرت في الجزائر بالعربية كانت جريدة "المبشر" وهي ثالث جريدة صدرت في العالم باللسان العربي أيضا، أشرفت على إصدارها مديرية الشؤون الأهلية للجزائريين (أبناء البلاد) بالولاية العامة، ولقد تم إنشاؤها بإيعاز من نابليون جيروم (وزير الجزائر)، وأشرف على تنفيذ هذه الرغبة الجنرال "دوماس" سنة 1847م فأصدر أول عدد يوم 5 شوال 1213هـ / 15 شتنبر 1847م، تحت شعار "ورود الأخبار من جميع الأقطار"،واستمرت الإدارة المحلية الفرنسية تصدرها بانتظام وباللسانين العربي والفرنسي

طوال ثمانين عاما (1847 - 1927)، لم يكن لها انتشار واسع لكونها اهتمت كثيرا بالبلاغات الرسمية وكأنها النشرة الرسمية المخصصة لنشر النصوص الإدارية، زد على ذلك أسلوبها الركيك، وبالرغم من هذا فإنها كانت تمثل المدرسة الصحافية الأولى للجزائريين، حيث كتب فيها العديد منهم المقالات الصحافية والإخبارية والشعر منذ نشأتها واستمروا طوال حياتها، والجدير بالذكر أن هذه الجريدة تعتبر من المصادر التاريخية الهامة للعديد من الثورات والمقاومات الشعبية خلال القرن التاسع عشر.

ومن الجرائد التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين "النصيح (An-Nacih)"، فبعد توقف جريدة "الحق" العنابية عن الصدور عام 1893، من جراء القوانين الزجرية الخانقة لكل الحريات، توقفت كل المحاولات لإنشاء صحافة عربية جزائرية حتى سنة 1898م، فاستُأنفت المحاولات من جديد في هذا الميدان، فأسفرت عن إنشاء جريدة عربية بعنوان "النصيح" يوم 4جمادى الثانية سنة 1317 هـ الموافق لـ 10 أكتوبر 1899م على يد أحد الفرنسيين المستعمرين، يدعى إدوار غاسلان (Edouard Gasselin) ويظهر أنه يهودي جزائري اسمه الحقيقي غزلان، وكان شعار هذه الجريدة – احترام الدين – اتحاد الجنسين وتخدم فرنسا أولا وأخيرا لكن بأسلوبها الخاص ولم تكن ذات اتجاه سياسي ولكنها كانت ذات مقصد تجاري، توقفت بعد سنة 1900م وذلك بوفاة صاحبها، فعوضت بفريضة الحج ثم المنتخب في مصالح العرب.

وعندما أصبح خطر النهضة العربية الإسلامية يقرع الأبواب في نهاية القرن التاسع عشر أسرعت السلطات الإستعمارية إلى تشجيع بعض مخلصيها لإنشاء بعض الصحف تحت إشرافها ومراقبتها،

الفراغ ومزاحمة الصحف بل وسد الباب في وجه الصحف التركية والمصرية والتونسية، التي كانت تدخل إلى الجزائر بوسائل خاصة، لذلك و نظرا لليقظة العربية الإسلامية، اقدم السيد دانيال لوسيان (D.Luciani) الموظف السامي في الولاية العامة على تشجيع إنشاء جريدة عربية بالجزائر العاصمة، بعنوان "الجزائر" Algerie سنة 1900م، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع، ولم يصدر منها سوى أعداد قليلة.

كما أصدر المطبعجي بيار فونتانا جريدة "المغرب" في أفريل 1903م، كانت تصدر بالجزائر مرتين في الأسبوع، اهتمت بالجانب الديني والإجتماعي، وكان يشارك فيها مجموعة من المثقفين الجزائريين من العلماء والأساتذة ورجال القضاء نذكر منهم عبد القادر المجاوي عبد الحليم بن سماية، علي بن الحاج موسى، السعيد بن أحمد بن زكري، عمر بن بريهمات علي العمالي، محمد بن أبي شنب، محمد بن مصطفى جوجة وغيرهم، وقد قال فيهم الشيخ محمد عبده حين زار الجزائر 1903م " :إنها بالرغم مما فيها من الأخطاء كانت مفيدة للجزائريين المسلمين الذين جُردوا من الصحف العربية الوطنية".

وتعتبر "الإحياء" أول مجلة تصدرها إمرأة مستشرقة بالجزائر العاصمة باللغة العربية، أنشأتها الآنسة جان ديرايو (Jeanne Duraieux) و هي فرنسية الأصل، صدر أول عدد منها يوم 17 فيفري 1907 وتظهر مرتين في الشهر وتحتوي على مجموعة من المقالات المختلفة من أدبية وإخبارية تتعرض فيها لأهم أحداث الساعة في العالم الإسلامي، وتهتم أيضا بالفتاة المسلمة.

تلت هذه الصحف مجموعة أخرى من الجرائد نذكر منها :

– كوكب إفريقيا : جريدة أسبوعية حكومية صدرت بالجزائر في ماي 1907م ويديرها – كما ذكرنا سالفا – محمود كحول و يلقب بـ "ابن دالي" وهو مفتي الجزائر، لقد أحدثت هذه الجريدة نهضة ثقافية واسعة نظرا للأقلام التي كانت تشارك فيها مثل ما هو في جريدة المغرب غير أنها لم تمس جوهر القضية، وهو التحرر من الإستعمار الفرنسي، توقفت عن الصدور بعد نشوب الحرب العالمية سنة 1914م.

– الجزائر : مجلة وطنية إصلاحية لصاحبها "عمر راسم" صدرت بالجزائر في أكتوبر 1908م صدر منها عددان فقط.

– المسلم : جريدة صدرت في 1909م بقسنطينة للفرنسي "داليس" (Dalis) نزعتها حكومية لم تعمر طويلا.

– الحق الوهراني : جريدة أسبوعية، صدرت بمدينة وهران محررة في أول الأمر بالفرنسية وبداية من أفريل 1912م أضيفت لها صفحتان بالعربية مديرها فرنسي يدعى "تابيي" (Tapié) إعتنق الإسلام وأخلص له، وبسبب إتجاهها الوطني الصريح وصدق لهجتها صودرت من طرف المستعمر سنة 1912م بعد أن صدر منها 46 عدد.

– الإسلام : جريدة أسبوعية لصاحبها الصادق دندان صدرت في اكتوبر 1910م بعنابة ثم تحولت إلى العاصمة في جانفي 1912م، وكانت لسان حال "الشباب الجزائريون" حررت في أول الأمر بالفرنسية، ثم بداية من جويلية 1912م أصدرت نسخة أخرى بالعربية توقفت النشرة العربية في 1912م بينما النشرة الفرنسية توقفت في 1914م.

- **الفاروق :** جريدة عربية إسلامية وطنية أسبوعية، أصدرها عمر بن قدور الجزائري في فيفري 1912م بالجزائر، وبعد عامين صادرها المستعمر.

- **البريد الجزائري :** جريدة صدرت في أوت 1913م بالجزائر صاحبها محمد عز الدين القلال خطتها "مقاومة إنحطاط الأخلاق قبل كل شئ" لم يصدر منها سوى أربعة أعداد.

- **ذو الفقار :** تعتبر أول جريدة عربية جزائرية يقوم بأعباء تحريرها وكتابتها، ورسم صورها وإخراجها، وطبعها شخص واحد وهو عمر راسم الذي توارى تحت إسم مستعار هو "إبن منصور الصنهاجي" صدرت في 1913م كانت جريدة إجتماعية دينية[14]، يقول فيها صاحبها : "ولما سمعنا الإسلام يئن من طعنات أعدائه، والوطن ينادي بالويل والحسرة على أبنائه أنشأنا هذه الجريدة لمحاربة أعداء الدين، وكشف أسرار المنافقين وإظهار مكائد اليهود والمشركين للناس أجمعين، وانتقاد أعمال المفسدين ومراقبتهم في جميع حركاتهم وسكناتهم".

وكان شعار ذو الفقار "جريدة عمومية إشتراكية انتقادية" متشبعة بأفكار محمد عبده الذي اعتبره عمر راسم "مدير الجريدة الديني"، بقوله : "ذو الفقار جريدة عبدوية إصلاحية، وأنها لا تخرج عن الطريقة التي خطها لها رجال الإصلاح المخلصين. .." وفي الصفحة الأولى من العدد الأول رسم رجل مصري ويشير ذلك إلى محمد عبده يحمل في يديه سيف علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وهو ذو الفقار وتحت رجليه كتب: "ذو الفقار. .بعثت لأقتل النفاق والحسد والكبر والشرك من قلوبهم. .وأبث فيهم الصدق والتسامح والتواضح والإيمان الخالص، وحب الخير لبعضهم والتعاون والإتحاد".